قصة قصيرة

السجينة

أحمد عبد ربّه

السجينة

ذهبت الفتاة الجميلة الثرية صاحبة الثمان والعشرون عاما الى احدى دور رعاية المكفوفين وجلست مع مسؤولى الدار وعرضت عليهم تقديم الدعم المالى والذى بالتاكيد لاقا الترحيب والثناء من الجميع وقبل ان تغادر طلبت الجلوس مع بعض المنضمين للدار حيث دارت الاحدايث المتنوعة عن الحياة ثم انصرفت كالعادة

وكانت الفتاة التى تدعى مروة تتردد باستمرار على العديد من دور رعاية المكفوين وتقدم لهم الدعم المالى فهى من اصحاب الثروة والعائلة العريقة

وفى احدى الليالى وبينما هى جالسة مع صديقتها فى احدى المقاهي الفخمة قالت لها صديقتها وهى تبتسم:

"امازلت تبحثين عن ذلك الشاب الذى ستضمنين انه لن يخونك"

فقالت مروة وهى تشعر بالملل والقليل من الغضب:

"نعم مازلت، وارجوك لا تسخرى كعادتك والا تركتك وذهبت"

فضحكت صديقتها ضحكات خفيفة وقالت:

"اسخر منك...بالطبع لا...لن اسخر...فقد مللت من السخرية منك وانت لم تملِ من تلك الفكرة المجنونة السخيفة"

فنظرت اليها مروة كالعادة وقالت:

"اخبرينى...ماذا ساخسر إن حوالت ان اجد شابا كفيفا كى اتزوجه، اليس هم من البشر"

فابتسمت صديقتها بسخرية وقالت:

"انا وانت نعرف جيدا انك لا تريدى الزواج من شابا كفيفا إلا لانك تعتقدين ان هذه الطريقة الوحيدة التى ستجعلك فى مأمن من الخيانة، فهو لن يستطيع النظر الى غيرك...ولكن الم تفكرى انك لن تستطيعى تحمل شابا له ظروفا كتلك...انا اعرفك واعرف انك ستملين فإن فعلتى ذلك ستظلمينه معك"

فقالت مروة:

"اُف...لقد سئمت منك ومن نصائحك الباردة...فانا لن اتخلى عما اردت وساجد الشاب الذى معه ساشعر بالامان من الغدر والخيانة فهو سيكون لي وحدى انا...

فلن اترك نفسى لعبة فى يد كل شاب متعجرف يحبنى ليومان ثم يتركنى كما حدث معك ومع داليا و ريهام ومع كل فتاة عرفتها او سمعت عنها...فلا تحاولى قتل املي كي اعيش ما عشتِهِ انت"

فشعرت صديقتها بالحزن فقد ذكرتها بالتجربة السيئة التى عاشتها قبل ان تنفصل وقالت بصوت منكسر:

"حسنا افعلى ما تريدى...ولكنى اريد ان اقول لك شيئا، انا لم اقصد ابدا ان اجعلك تتألمين بتجربة فاشلة كما حدث معي ولكنى اردت ان انبهك الى طريق خطأ وأمل زائف تسعيين وراءه"

فصمتت مروة للحظات ثم قالت بصوت منخفض: "حسنا فهمت"

ومرت الايام بها وهى مازالت على تطارد فكرتها التى تبدو من وحي الجنون فلم تكن زياراتها المتكررة الى دور رعاية المكفوفين والتى داومت عليها منذ ثلاثة سنوات صافية النية فقد كان هدفها الاساسي كما قالته صديقتها ان تجد شابا كفيفا تتزوجه ويكون شريك حياتها التى ستضمن انه لن يخونها مع غيرها ولن يتزوجها طمعا فى اموالها، فقد كانت ترى انه لن يكون له طموحات ولا اهواء.

وفى يوم من الايام بعد ان مر شهر على لقائها مع صديقتها كانت جالسة فى احدى دور رعاية المكفوفين وكانت بين النزلاء جالسة تتظاهر بالحب والود والسعادة فاذا بها تسمع صوت أحدٍ يغنى وقد كان عزبا جذابا لمس قلبها فسالت عن صاحب ذلك الصوت الجميل فاجابتها احدى الفتايات وكانت تدعى هند وهى مبتسمة وقالت:

"انه شادى"

فسالت مروة: "ومن يكون شادى؟"

فقالت: "انه رفيقنا هنا وهو ما يطرب اذاننا وينسينا الهموم بصوته"

فقالت مروة:

"انه صوت حقا ينسى الهموم ولكن لما لا ياتى اريد ان اتعرف عليه"

فتحدث احد النزلاء وقال:

"هو لا يحب مقابلة الغرباء كثيرا ولذلك يظل فى غرفته حتى يرحلوا"

فابتسمت وقالت:

"هل هو خجول...اذا لابد ان نكسر هذا الحاجز الذى امامه...ارجو منكم ان تبلغوه اننى اريد مقابلته"

فقام احدهم من مجلسه وقال وهو يبتسم:"انا سوف اجلبه حالا" ...ثم مشى متجها الى حيث يجلس شادى وبصعوبة جذبه الى حيث تجلس مروة وحين رأته ونظرت اليه لم تعى ماذا حدث لها فقد رأت شابا هادئ الملامح ذو ابتسامة صافية قوامه متناسق له طلة اخاذة جعلها تشعر وكأن أوان حلمها قد جاء

وبالرغم من ان الشاب شادى صاحب التسع وعشرون عاما بدى مرتبكا الا ان مروة كانت اكثر ارتباكا منه ولكنها حاولت الا تظهر امام الحضور اى شيء

جلس شادى وبدأ يتكلم وظلت مروة تحدثه متناسية كل من حولها حتى ان الكل تعجب مما يحدث فقد ابدت الاهتمام الكبير به حتى ان مشاعر الاستياء النابع من الغيرة ظهرت على وجه هند حيث كانت تحب شادى كثيرا مما ازعجها ذلك الاهتمام الذى لم يكن متوقع

ومر الوقت وغادرت مروة ولكن عقلها لم يغادر فقد بقى هناك مع شادى الذى اشعرها انها قد صارت على مشارف الوصول لما كانت تسعى اليه وان الشاب الكفيف ذو الصوت العذب سيكون هو الملجأ الآمن الذى سيسكن فيه قلبها ويكون هو الملاذ لحبها

ولانها قضت سنوات فى ذلك الحلم لم يكن للصبر ولا للعقل مجالا حينها فقد صارت دون ان تهتم لكلام الناس كل يوم تذهب الى نفس الدار وكانها تعمل هناك حتى ان الشركات التى هيا صاحبتها قد اوكلت بعض مهامها مؤقتا لبعض العاملين لديها لكي تكون اكثر تركيزا فيما تفعله

فبعد ان كانت تذهب بصورة الداعمة للنشاط صارت تذهب لتصطحب شادى معها ويذهبان معا الى حيث الهدوء والوضوح والحب المنتظر

وكانت كل لحظة تقضيها معه تشعر انها قد نجحت وان القرار الاخير فى تلك العلاقة قد بات قريبا، فلم يكن شادى مجرد شابا صاحب صوت عذب فقط ولكنه كان انسانا صاحب عقل واسع الافق له كلمات حكيمة تكبر سنه بعقود، مثقفا قارءا فى كافة المجالات، حتى انها احبت رأيه فى مجال التجارة التى تعمل بها وفوق كل هذا انه كان مرهف الحس ذو قلب عميق ممتلء بالدفء

وفى الجانب الاخر لم تكن الفتاة هند يمر عليها ليلة واحدة دون ان تبكي لساعات على ضياع حبيبها من بين يديها وهى التى لم تكن تعرف طعما للحياة سوى معه

لقد كانت تلعن نفسها كلما تذكرت اليوم الذى اخبرتها باسمه رغم انها لم يكن لها فى ذلك ذنب وقد كانت ستعرف من يكون بها او بدونها ولكنها دوما كانت تؤنب نفسها على انها كانت اول من نطق باسم شادى امام مروة وكانها كانت كلمة السر التى فتحت البوابة امامها لتسرقه منها

ومرت الايام وبالفعل تزوجت مروة من شادى متحدية كل من حولها اسرتها، اقاربها واصدقائها حتى نفسها فقد كانت كثيرا ما تشعر ان هذا الزواج المبنى على فكرة جنونية لن يكون السعادة الابدية التى تنتظرها خصوصا ان طبيعة مروة لم تكن فتاة من صاحبات المشاعر المرهفة والعواطف الجياشة فهى ذات طبيعة عملية لا تعرف فى حياتها سوى شيئان هما المكسب والخسارة

ولكن شخصيتها التى تحمل العند ورفض الاستسلام جعلتها تواصل رغم كل الضغوط

وخلال ايام الزواج الاولى لم تكن تشعر بالسعادة التى كانت تنتظرها فما ارادته شابا يكون كالخاتم فى اصبعها وقد نالت ما تمنته ولكنها كانت تشعر ان هناك حلقة مفقودة ولا تعرف ما هى

وبعد ثلاثة اشهر من الزواج حدثها شادى وهو جالسا معها وقال:

"اريد ان اساعدك فى العمل، لا اريد ان اجلس هكذا فى المنزل طوال حياتى، ولا اخرج الا معك، انا اعرف أن العمل سيتطلب تهيئة بعض الامور ليناسب حالتى ولكنى اريد ان افعل اى شيء... فانا اجيد الكتابة على الكمبيوتر واستطيع الرد على الهاتف وتنسيق المواعيد"

فابتسمت مروة وقالت:

"حسنا يمكنك ان تاتى معى من الاسبوع المقبل حتى اكون قد جهزت لك الظروف المناسبة"

فابتسم شادى وقال: "حسنا اتفقنا"

وبالفعل منذ بداية الاسبوع اصطحبته مروة الى شركتها ولم تهتم بالاحاديث الجانبية التى كانت تشعر بها واحيانا تسمعها من الموظفين

وبدأ شادى العمل وكان يشعر بالسعادة الشديدة من هذا حيث أحس بكيانه وانه اخيرا سيكسب مالا من جهده وليس مؤخوذا كمنحة من احد

وبمرور الايام ازدادت مهارة شادى العملية وطور قدراته بصورة شديدة السرعة حيث صار قادرا على الفهم والحديث باللغة الانجليزية وكان يقابل ويحدث العملاء الاجانب

ووصل الامر ان مروة صارت تعتمد عليه فى الكثير من الامور حتى انه لاقا حب الموظفين بالشركة على عكس الشعور الاولي الذى كان لديهم

وبعد مرور عامان بدأت مروة تلاحظ شيء عليه لم تعرف له تفسير فقد صار يذهب الى الخارج بصحبة السائق وكلما سالته يقول انه سيقابل اصدقائه او سيذهب لزيارة الدار التى كان يعيش فيها

فى البداية لم يكن يزعجها الامر ولكن حين تكرر كثيرا وطال مدة المقابلة بدأت تشك

وفى ليلة كان ذاهبا كالعادة الى الخارج وقد اخبرها انه سيقابل اصدقاءه استقلت سيارتها وتبعته حيث اوصله السائق الى بناية لم تعرف من يكون بداخلها

نزل شادى ودخل البناية فذهبت مسرعة نحو السيارة التى يجلس بها السائق ونزلت واتجهت اليه وسالته:

"ماذا تفعل هنا يا حسن"

فارتبك السائق حسن وتلجلج فى الرد:

"انتظر السيد شادى"

فسالته من جديد:

"وماذا يفعل السيد شادى هنا؟"

فصمت السائق ولم يعرف ماذا يقول فهزت رسها وقالت:

"حسنا، لا تريد ان تقول... انا سوف اعرف بنفسي"

ثم اتجهت مسرعة الى البناية وسالت الحارس فقال:

"ان السيد شادى هو مستأجر جديد لشقة بالدور الرابع يعيش بها مع زوجته"

فلما سمعت ما قاله كادت تسقط من هول الصدمة فما قضت سنوات تسعى وراءه حتى حققته قد انهار وياله من انهيار

فهى ليست مجرد إمرأة تزوجت من رجل ثم تزوج عليها، بل هى واحدة ظنت انها اشترت زوج متوقعة انه مُقيد بالعمى ولن يجد السبيل الى النظر لغيرها...فقد كانت تظن ان الفشل سياتى من عدم وجود الحياة السعيدة بينهما كما يحدث بين بعض الازواج ولكن لم تكن تتخيل ابدا انه بتلك الحالة سيتزوج ولذلك كانت صدمتها كبيرة

وبعد ثوانى من الصمت استعادت بعض من قوتها وصعدت مندفعة الى حيث شادى وزوجته التى مازالت لا تعرفها وحين دقت الجرس وفتح الباب عرف انها هي من رائحة عطرها فقال بهدوء:

"هل عرفتى ما كان يشغلك"

فقالت بغضب: "نعم ايها الخائن اللعين...ارنى من تزوجت...ارنى من رضيت بأعمى خائن مثلك"

فلما ظهرت زوجته والتى كانت نفس الفتاة التى كانت تحبه وهى هند قالت مروة بحقد:

"انها الفتاة العمياء صديقتك فى الدار...بالطبع... فمن التى كانت ستقبل بك سوى واحدة من نفس النوع"

فتحدث شادى بهدوء:

"اعلم ان ما حدث يزعجك ولكنى لم اخونك فانتى التى خدعتينى... لقد كنت اظن حين تقربتى منى انك احببتينى وانك رضيتى بالزواج من اعمى لان الحب لا يفرق بين البشر ولكنى عرفت بعدها ان السبب الوحيد لزواجك منى هو انك رغبتى بالزواج من انسان حبيس العمى ظنا ان عجزه سيجعله لن ينظر الى احد ولكنك اخطأت

فالحب ليس بالعين... فلو كنت تعلمين لعرفتى ان اكذب حب هو حب العين وفاقد البصر هو الاصدق فى حبه... لم اشعر معك يوما بانك تحبينى وكل كلمة سمعتها منك كانت مزيفة، فمحاولاتك دائما كانت لصنع عالم من المشاعر الوهمية التى ليس لها اصل فى القلب... لقد تزوجت بالتى عرفت تلمس قلبى وأرى معها الدنيا التى لا اراها بالعين"

فابتسمت مروة ساخرة وقالت:

"لقد تزوجت من انسانة بلا كرامة، فقد تركتها ورغم هذا تزوجتك حين عدت اليها"

فابتسم وقال:

"نحن بشر ولسنا ملائكة وقد اعترفت لها اننى اخطأت وقد سامحتنى لانها احبتنى والان قد صححت خطأى... وكنت اتناقش معها منذ قليل على امور طلاقى منك وكيف سيتم ولكنك اختصرتى الطريق علي...هذا بالاضافة الى اننى لم اخنها لاننى لم اعدها بشيء ثم اخلفته...لقد كنت من قبل اعاملها كرفيقة مكان ليس اكثر ولكنى عرفت قيمتها حين عشت معك"

فقالت مروة: "ولكنك بالفعل خائن... فقد خنتنى"

فقال وهو مازال مبتسم:

"لا.. لم اخنك...وإن كنت خنتك فلتذكري لي اى وعد وعدته لك باننى لن اتزوج من غيرك...

اتعرفين لماذا لم انطق تلك الوعد؟

لانك لم تكوني مهتمة بسماعه كباقى النساء، فقد ظننتى ان ذلك امر بعيد عن انسان سجين الظلام... لو كنت تعتبرينى كباقى البشر لطلبتى منى ان اعدك باننى لن اتركك كما تطلب اى امراة من حبيبها...

فإن كان هناك خائنا فى تلك القصة فهو انت...لانك خدعتى نفسك وظننتى ان الامان يؤخذ بالتحايل...فالامان شيء يرجوه الناس وسبيله الوحيد هو الصدق...فإن كنت تريدى الحياة والسعادة الحقيقية عليك بتحرير نفسك من سجن الخوف الذى وضعتى قلبك فيه... فقد حاولتى تجنب ما مرت به الاخريات ولكنك لو نظرتى اليهن ستجدى انهن افضل منك حتى ولو شعرن بالألم... فاى واحدة منهن على الاقل عاشت لحظات جميلة فى وقت ما، اما انت فلم تعيشى اى درجة من درجات السعادة حتى بعد ان ظننتى انك دخلتى عالمها...

فانتى سجينة منذ زمن...والسجين لن يسعد ابدا حتى يتحرر

تمت